ليلة عيد

ياسمين حسن

في اليوم التاسع من هذا الشهر مع رحيل الشمس يغادر الحجاج «عرفة « بقلوب لا تريد الرحيل متمسكين بآشعة الشمس يرجونها البقاء حتى يفرغ كل منهم من تقديم مظلمته والتماس الغفران علي ذنبه، من بينهم رجل تعدى السبعين من عمره على قسمات وجهه أمل في حياة مديدة آتيه وعلى شفتيه دعوة ثابته وكأنه لم يأتِ الا لينالها .. الولد .

****

علي جدار منزله وقف عامل الديكور ينقش رؤوس حجاج صغيرة حول الكعبة ، وفي الشرفة المقابلة وقف اب وابنته يتأملان ، الاب يتمتم قائلا « لبيك اللهم لبيك « ورجاء في قلبه بأن تتحقق امنيته والبنت تراقب البائع المتجول الذي وقف في الحي يبيع الاقراط والحلي للفتيات وفي عينيها صورة لفارس سيأتي في ليلة مثل هذه الليلة يشترى لها اقراطا فيروزية اللون .

يمر من امام احلامها رجل بدراجة منهكة وهو يتأمل قطيع من الغنم في ناصية الحي وفى يده لفافة بها بعض اللحوم المثلجة ، بجوار القطيع طفل يتيم في هيئة رثة يعبث بالأعشاب التي وضعها بائع الغنم كطعام لهم، وفي نفسه انتظار لقطعة لحم منها .

****

من نافذة مظلمة خرج دخان سيجارة الشاب الذي سكن في هذه الغرفة و تنهيدة حارة خرجت من صدر امرأة عشرينية علي فراشه ،التفت اليها قائلا: « الا زال ينتظر منك البشرى !» ثم صمت دقيقة قبل ان يعتدل في جلسته قائلا « صحيح ، كيف هربتِ من بناته الثلاث « اجابته : « كل منهن تقضي ليلة العيد مع حبيبها ، فرصة قبل ان يعود والدهن من حجته، والوقت يسرقنا يا عزيزي اريد ان اقضي ليلة عيد مثلهن ...».

*****

صوت صرخة مؤلمة يقطع حديثهما ،آتٍ من بيت صغير دفنت بوابته اسفل الطريق .

امرأة تنوح على زوجها الذي تنازل عن مرضه للحياة ..اصوات المارة اختلفت بين حوقلة واسترجاع وتهليل ...

رغم ازدحام الحي وتجمع سكانه حول هذا المنزل الصغير يشاركون الزوجة حزنها الا ان زوجة الحاج لم تحرك ساكنا ، لا زالت في غرفة الشاب الذي فر من عقوبة القتل الخطأ في قريته وجاء هنا ليختبئ بين سكان هذا الحى .

****

خرجت امرأة عجوز من منزلها تبث العبرات وابنتها التي ودع الامل ملامحها وقفت في حزن تطعم الكبش الذي انشغل عن طعامه ووقف يشاهد دموع الجيران على هذا الراحل ، كما نزل صاحب الدراجة من منزله في عجل وخلفه اطفال كثر ، كلهم بلباس النوم ، بـُعثروا في ارجاء الحي شاخصي الابصار تملكتهم دهشة وخوف زعزع فرحتهم بالعيد .

ما كانت الا ساعات قليلة وتم تجهيز الميت الى مثوى اخير ليقضي ليلة العيد بين سكان القبور ، رحل الليل مصطحبا معه احلام الفتاة ، وامنية ابيها ، ونظرة خزي في عين الزوجة وهي تجر ثوب عفتها المنهك راحلة الى منزل نقش العمال على جدرانه وصمات عارها !!

****

ارتفع اذان الفجر ، ثم قامت صلاة العيد التي اصطف لها السكان جميعا وعلي غير العادة قبل الذبح اقيمت صلاة الجنازة فوقف الجميع لحظة صحو كل منهم يسال نفسه : «ماذا لو كنت انا الراحل ؟!» الي ان انتهت الصلاة وشيّعت جنازة الفقيد الذي انحسر الحزن علي جدران بيته فقط وعادت اجواء العيد تتسلل الي جدران الحي في خجلٍ من امرأة ثكلى في نهار عيد ،استفتحوه اطفالها بمرارة اليتم ، و حاج في مزدلفة يذكر، وعلى جسد امرأته تـُعزف الحان تبكى !.

****

في صمت الحزن وانات الفرحة الجريحة دبت الحياة عندما صرخت الذبيحة تستغيث ، مشتهية مزيد من الحياة لكن .. سـُفك دمها على الارض الباردة تماما كهذه الدموع في عيون اهل الحي ... كل منهم يعد نفسه بسفك خطيئته .

openkan.com